من باب الفتوح
إلى باب النصر

« الحرية . . شبر الأرض ، وماء النبع ، قبر الجد ، وأمل الغد . . وضحكة طفل يلهو فى ظل البيت . وذكرى حب ، وقبة جامع أدوا يوما فيه صلا الفجر . . بأوجز كلمة . . عظمة أمة » .

بهذه الكلمات الثائرة فى عمق ، الشاعرة فى صدق ، تنتهى مسرحية (باب الفتوح) للكاتب المسرحى (محمود دياب) ، وهى المسرحية التى كتبت بعد الهزيمة فصودرت ولم يرفع عنها الستار ، وها هى تصدر بعدالنصر ، ليرفع عنها ستار ذات المسرح . . المسرح القومى .

فما الذى تقوله هذه المسرحية ؟

تقول باختصار إن انتصار السيف وحده لا يكفى إن لم يدعمه انتصار الفكرة ، فالفكرة هى التى تعطى النصر الحربى عمقه ومعناه ، وهى التى تخلع عليه دلالته ومغزاه ، وبدون الفكرة يصبح النصر أنشودة مجنحة فى الهواء ، دون أن يكون نشيداً يدب فوق الأرض ، وما الفكرة سوى التعميق الحقيقى للنصر فى جذور الواقع ، وفى ضمائر الجماهير . . أعطنى الفكرة وأنا أحقق لك النصر .

ولكى تجسد المسرحية هذا المعنى ، عمد كاتبها إلى التاريخ مستحضراً إياه إلى

واقعنا المعاصر ، ليس التاريخ الجامد المشلول . المحنط فى أروقة المتاحف والمخزون فى دور الكتب ، ولكنه التاريخ النابض الحى الذى يشارك إنساننا المعاصر فى صنعه وفى إعادة صياغته من جديد . . أليس يختار الإنسان ماضيه كما يختار حاضره ، بإعادة تفسيره للتاريخ . . ؟!

هكذا تطالعنا المسرحية بمجموعة من الشبان ، ضاع من بين أقدامهم الطريق ، فراحوا يبحثون عن بوصلة ترشدهم إلى السبيل ، سبعة من الشبان المعاصرين بينهم فتاتان ، أما البوصلة فهى التاريخ . . صحيح أن التاريخ ليس هو الحقيقة كل الحقيقة ، فهو عادة ما يكون تاريخ الحكام وليس تاريخ المحكومين ، تاريخ يكتبه السادة لكى يمجدوا به القادة ، فيثبتوا أشياءً ويسقطوا أشياءً . . ولكنه هنا فى هذه المسرحية وكما يقول الشاب الخامس : « نقرأ التاريخ كما كتب يا رفاق ، ولكننا سنعيد صنعه ، نعيد صياغته ، نرد إليه ما أنقص منه ، ونستبعد منه ما لا نقبله . . بكلمة مختصرة . . نصنع الحقيقة » . .

وتستعرض مجموعة الشبان تاريخنا كله ، حتى تقف عند عصر الفتوح الإسلامية ، إنه (عصر صلاح الدين) ، شمعة من الشموع المضيئة على طريق تاريخنا العربى ، أضاءت فى ليل حالك من ليالى الحروب الصليبية حيث سقطت فلسطين فى الشرق ، وسقطت الأندلس فى الغرب ، وفى البحر سقط البحر الأبيض المتوسط . ولكن (شمعة صلاح الدين) سرعان ما احترقت ، خبا نورها ، ولعقت زيتها ، وعاد الظلام ، فقد عاد الفرنجة بعد شهور ، واستعادوا البلاد العربية بما فيها مدينة القدس نفسها ، وأضحى (نصر صلاح الدين) كشعاع الشمس يسطع على جناح طائر . .

ولكن هل معنى هذا أن « صلاح الدين » لم يكن قائداً عظيماً ؟ . .

تقول المسرحية إنه كان بالفعل قائداً عظيماً ، ولكنه لم يكن ثائراً عظيماً ، كان قائداً عظيماً لأنه انتصر ، ولم يكن ثائراً عظيماً لأن نصره لم يدم طويلا ، بل مات نصره أمام عينيه ، لماذا – لأن الثورة فكر . . يشارك فيه الجميع ، ولأن النصر خير لابد أن يعم الجميع ، فإذا لم يشارك الكل فى الفكر والنصر ، وقف القائد وحده فى البرد والعراء بطلا بلا رايات ! !

ومن هنا تبدأ مجموعة الشبان فى البحث لا عن القائد ولكن عن الثائر ، فالعصر الذى أنجب القائد « صلاح الدين » لابد أنه أنجب ثائراً من الثوار . ويأخذ الشبان فى اكتشاف هذا الثائر وتحديد ملامحه ، ويخلعون عليه من الصفات ما يجعله مثلا أعلى ، أما أهم صفاته فهى أنه جاء يحمل فكراً ، كتاباً اسمه « باب الفتوح » ، وهو شاب عربى ، جاء من أشبيلية بالأندلس . . وليكن اسمه « أسامة بن يعقوب » . .

ولكن لماذا جاء ؟

ليقابل « الناصر صلاح الدين » ، يقرأ له فقرات من كتابه فيترجمها إلى سلوك وفعل ، باختصار ليقول له :

« ما من شىء يدفع عبداً أن يستشهد ليصون الحرية للأسياد ، أن يحمى أرضاً لا يملك فيها شبراً ، أن يحفظ عيناً لا يعطى منها جرعة ماء ، أن يمنح دمه ليحيا جلادوه » .

وعبثاً يحاول « أسامة » أن يلقى « صلاح الدين » ، فهو يلاقى عنتا من رجال الشرطة حتى يهرب من أشبيلية فى طريقه إلى « صلاح الدين » ، ويلاقى عنتاً من المؤرخ « عماد الدين » الذى ينظر إليه فى سخط ، ويقرأ كتابه فى غضب ، ويوقع به عند « سيف الدين » قائد الجند الذى يفكر فى قتله ، ولكنه يخشى أن يلطخ نصر « صلاح الدين » بدم عربى ، فيأمره بالعودة إلى الأندلس ، ولكن أسامة الثائر

يواصل طريقه إلى القدس للقاء « صلاح الدين » .

وأمام أبواب عكا ، يلاقى أسامة نفس التعنت من رجال الشرطة ، وهو تعنت لا يقتصر على أمثاله من الثوار ، ولكنه يمتد ليشمل جمهور العامة ، فها هم الأهالى العرب يقفون أمام أبواب عكا فرحين بانتصار « صلاح الدين » ، يحاولون دخولها والعودة إلى ديارهم ، ولكن جند « صلاح الدين » يمنعوهم من الدخول حتى يؤذن لهم . وينبرى « أسامة » من بينهم متحدثاً باسمهم ، مطالباً بدخولهم إلى مدينتهم ، فيتعرف عليه « سيف الدين » ويأمر بالقبض عليه ، إلا أن « زياد المصرى » كاتب المؤرخ « عماد الدين » الذى كان قد انبهر بكتاب « أسامة » ، ينبهه إلى ذلك ، ويساعده على الهرب . فيواصل « أسامة » ، رحلته إلى القدس .

وفى الطريق إلى القدس يلتقى « أسامة » بقوافل العائدين ، ويتعرف على أسرة فلسطينية هى أسرة « الشيخ أبو الفضل » العجوز الهرم الذى تخطّى المائة ، وكان قد شهد غزو الفرنج للقدس ، ورآهم يقتلون الأطفال ويهتكون النساء ويخربون كل شىء . وعاش حياته يحلم بالعودة ، وها هو يعود إلى قدسه المحررة ، والفرحة تملأ خلاياه ، ولكن أحلام الشيخ سرعان ما تخيب ، فالدار لم تعد داره ، سكنتها يهودية تدعى « سارة » . وابنة لها تدعى « سيمون » ، والدار عشش فيها النخاسون ، والأفاقون ، وتجار الجوارى ، وتجار الغلال ، وها هم الشرطة يحولون بين الشيخ وبين الدار تحت ستار القانون والمحافظة على الأمن .

ويتمكن « أسامة » من دخول القدس مع أسرة الشيخ العجوز ، ويلتقى فى المدينة بمجموعة الشبان الذين علموا من « زياد » بأخبار كتابه ، ووضعوا أنفسهم تحت أمره ، وراحوا يتشاورون فى الطريقة التى يقابلون بها السلطان ، أما « أسامة » فيصمم على أن يقابل بنفسه « صلاح الدين » ، وأن يخوض مع الشرطة المتربصين

به هذه المغامرة ، وأما مجموعة الشبان فيحمل كل منهم نسخة من (باب الفتوح) ويسعى بها فى قطر من الأقطار حتى تبلغ أفكاره أفئدة العامة ، فإن ضاع « أسامة » بقى الكتاب .

ويهل موكب « صلاح الدين » وهو ذاهب إلى المسجد ليقيم الصلاة ، ويسعى كل شاب إلى اختراق صفوف الشرطة ليعطى الكتاب للسلطان ، ولكن الشرطة تقبض عليهم واحداً بعد الآخر ، بتهمة محاولة الاعتداء على حياة السلطان . ويسقط شاب وراء شاب ، وتحرق نسخة فى إثر نسخة ، ولكن بعد أن يكونوا قد زرعوا فى الأرض شجرة اسمها « أسامة » ، وبعد أن تكون هذه الشجرة قد أثمرت فكراً اسمه (باب الفتوح) .

ويبقى (أسامة) وحده مع النسخة الأصلية من الكتاب ليقوم بالمحاولة الأخيرة . وتظل الشرطة تحول بينه وبين ملاقاة السلطان ، حتى ينبرى التجار . . تجار الغنائم والأسلاب ، أصحاب المصالح الطبقية فى هذا النصر ، فيضعون خطة للإيقاع « بأسامة » وتسليمه إلى رجال الشرطة ، تساعدهم فى ذلك اليهودية « سارة » وابنتها « سيمون » ، ويتكاثرون على الفتى ، ويتكاثرون ، حتى يسقط تحت كروشهم الممتلئة بأكل الجياع ، وأجسادهم المنفوشة بلبس العرايا ، وأيديهم الملطخة بدم الشهداء . يموت الفكر . . ويبقى السيف بلا سند يحميه ، فلا يدوم نصر « صلاح الدين » طويلا ، لأن الفرنجة سرعان ما يعودون ليحتلوا البلاد من جديد .

هذه هى مسرحية « باب الفتوح » وهذا هو مضمونها الجوهرى ، الذى عرف الكاتب الناضج « محمود دياب » ، كيف يصوغه صياغة تجمع بين الحدث المسرحى البسيط وبين الإطار الملحمى التعليمى ، بين الحوار القوى الهادر وبين

الشخصيات الحية والشخصيات النمطية ، بين التاريخ الماضى وبين الحاضر المعاصر ، بين الكورس الذى يعبر عن ضمير الجماعة وبين الكورس الذى يشارك فى الأحداث ، فى الفعل التاريخى وفى إعادة صياغة التاريخ .

والمسرحية يلتحم مضمونها بصياغتها التحاماً كاملا حتى لكأنها الكائن الحى فوق المسرح ، الكائن الذى ينتمى إلى تراثنا بتاريخيته وإلى حاضرنا بعصريته . . وهذا كله من أجل إضاءة جوانب الواقع ، ومضاعفة حجم الحياة ، وإنارة ضمير الإنسان .

وكم كان المخرج الكبير « سعد أردش » أميناً مع هذا كله ، واعياً به عن اعتقاد واقتناع ، فعرف كيف يجسد النص فوق المسرح ، بل عرف كيف يبلور المضمون والصياغة معاً من خلال التركيب البسيط ، والفكر الحى ، والحركة المتناغمة ، والعرض الواصل أولا إلى ذهن المتفرج ، وبعد ذلك إلى ضميره . لقد نجح فى أن يجعل من العرض قضية ، ومن الصالة ساحة قضاء ، ومن الجمهور قضاة فى محكمة التاريخ ، وشهوداً على معطيات العصر .

وكان المخرج بارعاً فى تحقيق التأثير الفكرى والوجدانى جميعاً ، من خلال المزج المحسوب بدقة بالغة بين الحدث الدرامى المسرحى والإطار الملحمى التعليمى ، فالإيهام الدرامى يؤدى دوره وكسر الإيهام يستكمل الدور ، وبذلك يتحقق الانفعال بالمواقف وفى ذات الوقت تأمل القضايا ، والمشاركة الوجدانية مع الحلم والتأمل الذهنى للتاريخ .

وهذا هو الذى ساعد على إنقاذ العرض من الوقوع فى هوة المسرحية التاريخية ، والارتفاع به إلى المستوى الرمزى الأكثر تعبيراً والأقوى تأثيراً ، فتاريخية العرض المسرحى ليست سوى المهاد الفنى الذى تتحرك فوقه الأحداث المعاصرة .

وقد نأخذ على المخرج بطء الإيقاع بوجه عام ، وقد نعترض على العبارات المسجلة بصوته والمؤداة بطريقة (البلاى باك) لما فيها من تعليمية مباشرة ، وأكاد أقول تدريسية ساذجة . وقد نعيب على (رقصة الدبكة) تفككها وعدم أدائها بإتقان ، وقد نلاحظ على نهايات الفصول الثلاثة فتوراً لا يكاد المتفرج يشعر معه بنهايات الفصول ، ولكن هذا جميعه لا يقلل فى شىء من روعة هذا العرض وبراعته ، ومن أننا بحق أمام مخرج كبير ، أليس يحسب لهذا المخرج اختياره للنص المسرحى ؟ .

غير أن براعة « سعد أردش » فى تجسيد مسرحية (باب الفتوح) ، كفيلة بأن تجعلنا نعود إلى باقى عناصر العرض المسرحى التى عرف كيف يوظفها ويستثمرها فى بناء « باب الفتوح » ، فى طليعتها الأشعار العامية الدافئة والمعبرة التى وضعها الشاعر « عبد الرحمن الأبنودى » ، وصاغها لحناً الفنان « كمال بكير » ، وأداها أداءً دالا وموحياً المطرب « محمد حمام » فكانت فى مجموعها إضافة للنص تنسجم مع مضمونه وصياغته ، ومع (المنهج الأردشى) ، فى الإخراج أروع انسجام .

كذلك كان الديكور الذى أبدعته الفنانة « سكينة محمد على » ، ممتازاً ومتميزاً ، ممتازاً فى وفائه خطوطاً وألواناً ومستويات بكل ما يتطلبه العرض وتستلزمه الحركة المسرحية ، ومتميزاً فى شخصيته المتكاملة من حيث الجمع بين الجمال التشكيلى والأداء الوظيفى ، واستيعابه لكافة أبعاد العرض ، للديكور التاريخى والديكور المعاصرة ، للديكور الحلم والديكور الواقع ، للديكور الوظيفة والديكور الفن .

أما عن طاقم الأداء التمثيلى فقد كان فى عمومه متناغماً منسجماً بعضه مع

البعض الآخر ، حتى فى تنافره وتصارعه لم يفقد طابع التناغم والانسجام ، على رأسهم جميعاً يقف العظيم « عبد المنعم إبراهيم » بحضوره القوى وأدائه الأقوى ، بفهمه لدوره وتفهمه للعمل ككل . لقد برع فى تجسيد الصورة النمطية للمؤرخ المتكيف مع السلطة ومع الوضع الاجتماعى ، مضيفًا على هذه الصورة لمسات من فنه هو . . ذلك الفن الرفيع .

وبعده يجىء القدير « محمد الدفراوى » الذى تألق فى دور « سيف الدين » . وأداه بوعى واقتدار ، لا افتعال ولا انفعال ، بل كان طرحاً موضوعيًّا لدور رئيس الشرطة المندمج فى النظام ، ساعده فى ذلك بناؤه الفيزيقى الفارع ، وصوته الجهورى المعبر . وبعدهما تجىء الممتازة « فردوس عبد الحميد » بأقدامها الراسخة فوق المسرح ، وتمكنها من ناحية الأداء المسرحى ، بساطة ملؤها العمق ، وتعبيركله الرقة وشخصية أهم ما يميزها التميز ، وصوت قادر على التنقل بمهارة بين الأداء والغناء . ثم يجىء « محمد عنانى » فى دور « زياد » ليؤديه بتوفيق واضح ، ويلفت بأدائه الأنظار والأسماع ، فلا تخطئه عين ولا تغفله أذن

أما « رشدى المهدى » فى دور « أبى الفضل » فلا أدرى على من يعاب أسلوبه فى الأداء ، عليه هو أم على المخرج ؟ لا لعيب فى أدائه وهو ممثل ممتاز ، ولكن لأن أسلوبه فى الأداء كان نشازاً بين باقى الممثلين ، فقد أدى دوره بأسلوب التقمص الوجدانى المملوء بالانفعال ، والكل يؤدى بالأسلوب التعليمى الذى يحرص على مخاطبة الذهن أكثر من حرصه على إثارة الوجدان ، أما « محمد وفيق » فلم يكن موفقًا على الإطلاق فى دور « أسامة » ، كان أسلوبًا ضائعاً بين الأسلوبين . . الدرامى والملحمى فسقطت الشخصية بين يديه ، ولم يكن مثيراً ، ولا مقنعاً ، كان « أى كلام » ، إن « عبد الله غيث » كان أنسب من يقوم بهذا الدور .

إن « باب الفتوح » هى الباب الذى يمكن أن يعبر منه مسرحنا المعاصر ، من الأزمة إلى الانفراج ، إنها نسيم يهب علينا من مسرح الستينيات ، نستنشق فيه عبق المسرح الحقيق ، ولكن هل مسرحية واحدة تكفى ، ما أحوجنا حقًا إلى أكثر من باب من أبواب الفتوح ! !